فى التربية والتعليم

فى المرحلة الأولى من التعليم

بقلم الأستاذ التقدير عبد القادر المازنى

لا أعرف ماذا أكتب لهذه المجلة فأنها مجهولة لفريق معين من رجال التعليم ، وقد انقطعت صلتى بالتعليم من زمن طويل ، فلا علم لى بأموره كيف تجرى إلا على الجملة ، على أن هناك مبادىء أولية أرجو أن يكون الأمر فى غنى عن بيانها ، وأهم هذه المبادىء فى رأيى أن المدارس التى تكتفى من التعليم بالتلقين لا تعلم شيئا ولا تفيد أحداً ولا تخرج للأمة إلا خزانات لا تكاد المدارس تملؤها حتى تفرغ بعد تركها وتعود خاوية ، والمهم فى التعليم ليس التحفيظ بل تقوية الملكات وإنماء الاستعداد الكامن فى النفوس ، وأمام معلمى المدارس الأولية فرصة لا أظنها تتاح لزملائهم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، وأعنى أن التلميذ فى مرحلة التعليم الأولى ، يكون جديداً ، فهو كله استعداد ، ولا سبيل إلى تبين هذا الاستعداد إلا باطلاق الحرية للطفل مع مراقبته وتعهده وتفقده ، وبذلك يستطاع أن يعرف المعلم الاتجاه ، وأن يقف على نوع المواهب الخاصة التى رزقها كل تلميذ ، وأحسب أنى لا أكون مخطئاً جدا إذا قلت أن الذى يحدث هو عكس ما أصف ونقيض ما أدعو إليه ، أى أن المدارس كثيرا ما تقمع المواهب وتخنقها وتحول دون ظهور الاستعداد ونموه ، مثال ذلك : تلميذ يراه المعلم يخط على الورق ويرسم أشكالا غير واضحة ، فيحسب ذلك منه لعباً عبثاً ، ويعاقبه عليه أو يزجره عنه ، لأنه لا يدرى أن التلميذ ما فعل ذلك إلا وهو يميل بفطرته إلى الرسم ، فلو وجد من يتعهده ويرشده لظهرت مواهبه فى هذا الباب ، وقد تجد التلميذ معنياً بتركيب قطع من الخشب ليصنع منها كرسياً أو غير ذلك ، أو يطى الورق حتى تكون على صورة الزورق ، وهكذا ، وهذا الاختلاف بين ما يغرى به التلاميذ ، مظهر لاختلاف الاستعداد ومن الممكن مراقبتهم فى أوقات الفراغ واللعب

إذا لم يتمرن ذلك فى أوقات الدرس .

ولكنى أعود فأسأل : وما خير هذه المراقبة بالغة ما بلغت من الدقة ؟ وما جدوى أن نعرف استعداد كل تلميذ إذا كان التعليم فى مراحله التالية مجرد تحفيظ ولا عناية فيه بالمواهب والاستعداد ؟! والجواب أنه لا خير ولا جدوى مع الأسف ، ويؤكد انتفاء كل خير أن بيوتنا ليس فيها — فى الأغلب والأعم — أمهات صالحات لتعهد أبنائهن مع الأسف .

ابراهيم عبد القادر المازنى

بين الطفولة والرجولة

عهد الطفولة عهد ما أحلاه ، وزمن ما أشهاه . أيامه جانية ، وأوقاته جميلة . سدته القناعة ، ولحمته الوداعة . عهد الرضا باليسير ، عهد الغفلة فى المسير . عهد الطيش فى الشباب ، عهد العبث بالتراب . عهد مضى وانقضى . وكانت النفس فيه راضية ، والعيشة صافية أنعم بها من أيام مضت ، وأعوام سلفت . فراقها يدمى المآقى ومالها من تلاق ، واستذكارها يسيل العبرة ويكسب الإنسان خبرة

ما كنت أعرف الشاهى ولا كيف أتناوله ، ولا التبغ ولا منهله . ولا الظهور وميادينه ولا الفخار ونياشينه . بل كنت أعيش فى سعادة ، إذ لم تكن لى فى ذاك العهد عادة . وأحقق الوعادة بالعين ، وأقطف الجنى باليدين ، وأتم الحفظ بالشفتين . فتلك كانت حالتى منذ كنت صغيرا ، وكنت بين الصغار شهيرا . كنت أميرا فى مملكة كلها أطفال ، وجلها أبطال أدير شئونها من غير سلاح ، وأنظم صفوفها فأحوز كل فلاح .

أما اليوم . وقد أصبحت لشئونى أدير ، ولكسب قوتى أسعى وأسير . لا أقتنع بزادى وإن زاد ، ولا أمدح دهرى ولو جاد . آمالى بعيدة ، ورغباتى عديدة ، ولكن القيود شديدة . أفكر فى مستقبلى وإن كان مجهولا ، وأتمجل قضاء ربى وإن كان مفعولا .

تناقلت قدماى فى المسير ، وزاغ البصر وعاد وهو حسير ، وارتد الطرف وهو كسير . فلا نجاح أحرزت ، ولا قبول حزت . بل كان نصيبى كسب قليل ، وهجر وحرمان من الخليل . ذاك لقلة المال ، وأن كان ولا بأس بالحلال . فهذا غير كاف لارضاء الصديق ، ولا واف لاخلاص الشقيق

فأن قلت فقيرا .. قالوا تداعى ، وإن أردت انتصارا شيعوا الذم تباعا ، وجعلوا الشر فى البعد باعا ، والفقر فى الهجر ذراعا !

محمد عبد الحميد سليم
مدرس بمدرسة بنى سويف الثانوية

فى مهنة التربية والتعليم

طالما تصادف « مهنة التربية والتعليم » فى أدوارها المختلفة شيئاً كثيراً من الخلط وسوء الفهم اللذين ينشآن عادة من اختلاف وجهة النظر حيال هذه المهنة ، اختلافاً أساسه الخطأ فى الجمع بين المعلم المحترف والمعلم الدخيل ، فالمعلم الأصيل يعتبر نفسه خبيراً فى هذا الفن ، وسوف يشكو من وجود بعض الدخلاء معه فى هذه المهنة ، والمعلم الدخيل لا يعترف بالفن والحرفة . بل تراه يرفضهما ويعتبرهما سفسطة لا غناء فيها ويستند فى زعمه هذا إلى أن درسها من التجربة والمران خير من قنطار من الفن النظرى والمعانى الاعتبارية

وهذا ما كان يحدث قديماً بلا جدال فأن المعلم الأول أو الابتدائى كان يخضع فى بدء حياته لشئ من تعاليم التربية ثم يمضى فى حياته المدرسية معتمداً على تجاربه ومرانه بل لقد كان المعلم الابتدائى — كما حدثنا التاريخ — أكثر تواضعاً فى إيمانه بنظريات التدريس لأنه كان أحوج إليها من غيره ، أما المعلم الثانوى فكان يعى المادة التى يدرسها دون إتقان طريقة تلقينها للطلبة والمهارة فى صوغها لهم على النحو اللائق للهضم والاستيعاب

ومع هذا كله فقد كان المعلمون أجمع يميلون إلى استهجان من يتعمق منهم فى فن التدريس ويحاول التمادى فى تطبيق نظريات هذا الفن لأنهم كانوا يعترفون صراحة بأن من يريد التعمق فى هذا الباب ينبغى أن يلم الألمام كله بعلم التربية ونظرياته وأسسه من طريق المران ليصل إلى درجة لائقة من المهارة التطبيقية التى ينشدها وأن يساير المران فى الوقت نفسه

ولكن الأمور تطورت بعد ذلك تبعاً لتطور العالم الحديث ، فآمن الناس بفن التعليم واعتبروه العمود الفقرى لمهنة التدريس على أن نفراً من المعلمين مايزال لايفرق بين المدرس والمربى ويقول إن المدرس أعم فهو يشمل المربى بطبيعة الحال ، فكل من يعلم غيره يعتبر مربيا لأننا لا نستطيع أن نربى إلا بفن التعليم ولكننا نستطيع أن نعلم دون حاجة إلى فن التربية ويميل كثيرون من المعلمين إلى اعتبار أنفسهم مربين على هذا الأساس لأنهم كما يقولون حين يعلمون يؤثرون بطبيعة الحال فى خلق المتعلمين ، أما المعلم الحديث فاذا لم يلم بفن التربية فأنه يأبى أن يعتبر نفسه مربيا

ولقد نحت المؤلفات الحديثة فى فن التربية هذا النحو فقالت إن تعريف التربية لا يكون إلا بذكر مراميها وأغراضها وتحليل وسائلها

خذ مثلا رجل الشارع فأننا نقول « إننا نعده للحياة » ويقول رجال التربية الدينية « إنهم يعدونه للحياة الأخرى أيضا » ولكن هربرت سبنسر يخصص قليلا فيقول « إننا نعده لحياة كاملة صحيحة » ، وعلى هذا القياس قلنا « إننا نعد الطفل ليستطيع أن يعتمد على نفسه فى حياته » — أما « ملتون » فيقول عن الطفل « إننا نعده من طريق التربية الصحيحة ليصبح رجلا سديد الأفعال منصفا ماهرا يخدم نفسه وينفع المجموعة فى السلم والحرب »

ومن التعاريف الرائعة لفن التربية ما قاله « جون ستيوارت ميل » خلال محاضرة ألقاها فى جامعة سانت اندروز بانجلترا ، من أن التربية هى « التأثير المباشر فى الأخلاق وفى المواهب الانسانية بالاعتبارات ذات المرامى المختلفة ، كالقوانين ، وشكل الحكومات وفنون الصناعات ، وضروب الحياة الاجتماعية ، بل والحقائق الطبيعية التى لا تخضع لارادة الانسان وتقلبات الجو ، وتربة الأرض ، والظروف المحلية » ثم ألم « ميل » بهذا كله فى عبارة أثارت إعجاب فلاسفة التربية وعلمائها إذ قال تلخيصاً هذا التعريف : « إن التربية هى الثقافة التى يهبها كل جيل هبة متعمدة إلى الجيل الذى سيخلفه ليهيئه للمحافظة على المستوى الذى وصل إليه على الأقل ، أو لترقية هذا المستوى إن أمكن »

فى اللحظة التى نسائل أنفسنا فيها : كيف ننفذ هذه الاعتبارات والأفكار ؟ نكون قد لمسنا بيدنا موضوع فن التربية بالذات ، وهنالك يجب أن نسجل ما يقوله بعض الفقهاء من أن فن التربية ينحصر فى الوسائل والأساليب فأذا حاولنا تحديد الوسائل والأساليب التى يتحدثون عنها وفصلها عن بقية الأساليب والوسائل العديدة فى هذا العالم ، اعترضتنا صعوبات ليس لها نظير ، ولهذا يجب أن لانشغل أنفسنا بالتعمق فى هذا التعقيد ، ولنلف حول هذه الأساليب والوسائل مع تحليل جميع العناصر الملائمة لها ، المتكافئة معها

ولنبدأ هذا التحليل باعتبار التربية ذات قطبين ، القطب الأول هو المعلم ، والقطب الثانى هو التلميذ ، وهنا تصادف هذه النظرية شيئا من عدم الارتياح ، فكيف نعود لتسمية القائم بفن التربية معلما ونجعله قطبا مقابلا للتلميذ ، فى حين نعترف اعترافاً صريحاً بأن فن التربية شىء وفن التعليم شىء آخر ؟ ، وإذن يجب أن نبحث للقطب السلبى المقابل للقطب الايجابى ، ولهذا نضع هذه المعادلة :

المعلم .... يقابله .... التلميذ

المربى .... » .... س

وهنا لا يسعنا إلا إحياء معالم الالفاظ القديمة التى كان السلف يعتمدون عليها للفصل التام بين الوحدتين ، فإذا كان المعلم يقابله التلميذ فالمربى يقابله « المتأدب »

ومع هذا كله فأنه وإن كانت المعادلة التى أسلفنا ذكرها قد فصلت فن التربية فصلا تاماً عن فن التعليم ، فليس من الضرورى أن يكون المربى غير المدرس أو المدرس غير المربى بل من الجائز جدا أن يكون الشخصان متدمجين فى شخص واحد

فأذا تناولنا بعد ذلك الوسائل والأساليب التى دفعتنا إلى اكتشاف قطبيها الايجابى والسلبى ، استطعنا أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام : أولها ما قلنا بأن التربية هى إدخال بعض عناصر التهذيب على كيان المتأدب ، وهى عناصر ليس من السهل تعريفها أو الاحاطة بها ، فلا عجب لو أننا عجزنا عن الاجابة عن مثل السؤال الآتى : أى شىء يتناوله هذا التهذيب ؟ ولو أن هذا كان فى جسم المتأدب لاستطعنا الجواب ولكن إذا تركنا الجسم وتناولنا غيره استحال علينا الجواب ، وهذه الاستحالة هى التى تجابه اليوم علماء النفس أنفسهم .

ويذهب بعض المعلمين إلى القول بأن عناصر التهذيب تتناول الأخلاق ، فأذا سلمنا بهذا يكون قد طرقنا بابا آخر ليس من متناول بحثنا ، وليس من عناصر موضوعنا الذى نعالجه ، فاذا قلنا أن المربى يهذب العقل ، فأننا نكون قد أغفلنا القسم الثانى من مهمته وهو تربية الجسم ، وإذا قلنا إنه يهذب العقل والجسم ، كان التعبير ركيكا معقداً بعيداً عن الاستقامة مع المعنى ، ولهذا كله فلن نصل إلى تعريف أروع من « تهذيب العناصر التى تتكون منها الطبيعة البشرية الملازمة لكل مخلوق من المخلوقات الآدمية »

وثانيها : الغرض من التربية ، وهنا أيضا قد نضل قبل أن نصل إلى تعريف هذا الغرض ، فهو غرض أسمى أو ما نحل لانفسنا تسميته المثل الأعلى ، وهذا ما نستغفر الله فى قصورنا عن أن نبلغه فأنه الغرض اللانهائى غير المنظور ، ولهذا قد يكون الأصوب أن نعين الغرض من التربية بأنه هو سلوك الطريق الموصل إلى ما قد يصل إليه الانسان من معانى المثل الأعلى

وثالثها : العنصر الذى نستخدمه لأداء مهمة من التربية ، وهذا العنصر سهل الأدراك بل يكاد يكون ملموسا فليس هو شيئا سوى الثقافة العقلية ، لأننا نستخدمها فى نقل محصولنا منها إلى عقول غيرنا من طريق البث والتلقين ، فأنت تذهب عادة إلى الصانع لصياغة الذهب ، وإلى الحداد لألانة الحديد ، وإلى المدرسة لاستقاء الثقافة والمعرفة

فالمدرسة تعتبر بناء على هذا خزانة للثقافة والمرفق ، أو مورداً للثقافة التهذيبية التى يسعى تلقينها فن التربية ؟

(عن وسائل السرجون أدامز)